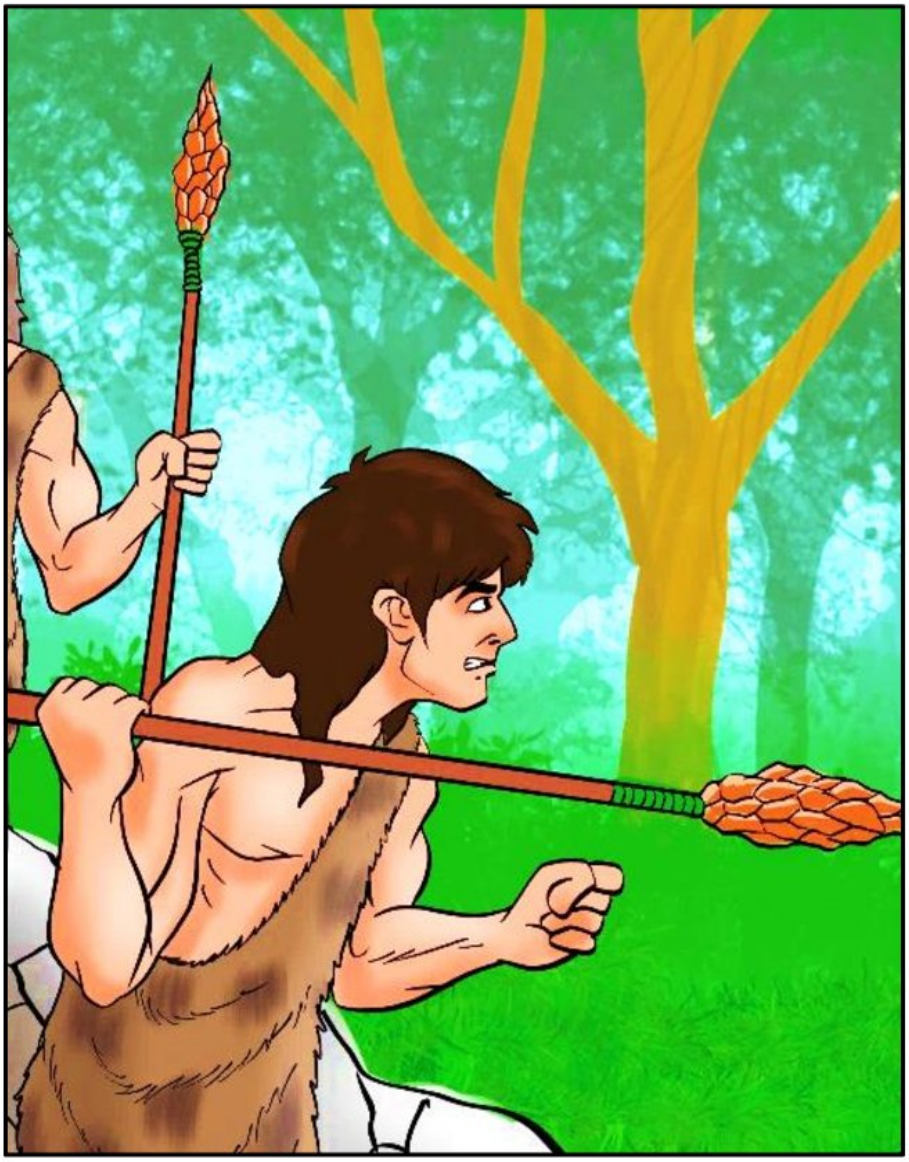

إرتحال الإنسان القديم.

اِرتحال الإنسان القديم

بقلم

أسماء القاسِمي

عنوان الكتاب: **ارتحال الإنسان القديم**
المؤلف: **أسماء القاسمي**
رسوم: وليد محمد معوض (مصر)
رقم الإيداع القانوني: 2023MO3585
الرقم الدولي المعياري للكتب: 978-9920-42-188-1
الطابع: مطبعة الأمنية؛ الرباط؛ الهاتف: 0537724839.

الطبعة الأولى؛ 1445 هـ؛ الموافق 2023م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

يُمنع طبع هذا الكتاب؛ ونشره ورقيا، أو رقميا، أو نسخِه، أو تخزينه؛ أو تصويره؛ بأي جهاز إلكتروني، أو آلة ميكانيكية، أو إتاحة قراءته بأي شكل من الأشكال، أو طريقة من الطرق.

تقديم

منْ مِنّا لا يُنصِت إلى الحكاية –سواء كانت خيالية أو واقعية– وهي تُروى بعناية خاصة؛ وبلذة استماع؛ لابد من أن نعرف ما كان يحدُث؛ كذلك يطرح الفرد مِنّا أسئلة كثيرة من قبيل: كيف كان يحيا الإنسان القديم؛ بمعنى آخر أجدادنا الأوائل الذين تفرعنا عنهم؛ والذين ذرعوا[1] على سطوح هذه الأرض؟ ماذا كانوا يأكلون؟ وكيف كانوا ينتظمون في جماعات؟ وما هي مواسم مغادرتهم لهذا المكان أو ذاك؛ إلى آخر يجدون فيه ما يحتاجون إليه؛ وبحثا على مَآمِن للأمان، وعلى ما يمكن أن تجود به هذه الجهة أو تلك، من عيون ماء مُتفجرة؛ لإطفاء ظمأ طريق التنقل الوعرة والطويلة، ومن ثمار النباتات، ومن لحوم وحيش وطرائد تصلح للأكل، وتُطعِم من جوع؟ وما هي الأدوات التي كان يبتكرها لحاجته إليها؛

[1] ذَرَع بمعنى سار ليلا ونهارا.

كالسِّهام والنِّبال والحِراب لاصطياد الحيوانات البرية، ومكاشط لكشط دُهون الجلود والفِراء، لتُلبس اتقاء البرد، وحَجَر مُدملك مُتشظ ومُشفّر لِسلْخ الجلد عن الحيوان، والتي يصنعها ذلك الإنسان؛ مما هو كائن في محيطه البيئي؟ وما هي مواعين صبّ السوائل والطهي والحفر والتقطيع؛ كالقصْعة والفأس والقِدر والمُدْيَة؟ وما هي الأمراض التي كانت تصيبه، وكيف كان يتداوى منها؟ وما هو الدواء؟ وكيف كان يُزاحم الحيوانات المفترسة في مراقِدِها وفي حِماها؟ فيتعارك معها، فهي إما أن تتغلب عليه فتطرده من بيئتها التي تذود عنها، أو تقتله، أو يقهرها هو فيقتلها ويشوي لحمها، فكما يحمي هو ذراريه ليكثر نسلُه، ويجلب إليهم وهم مَهِيضو الجناح؛ ما يتقوّتون به ليتقووا، كذلك للحيوانات شِبلُها وخُشْفُها وخِنّوصُها وهِجْرِسُها وحِسْلُها وخِرْنِقُها ودَيْسَمُها...[2]؛ تُغذّيهم

[2] هذه أسماء لصِغار الحيوانات البريّة.

بما تصطاده هي أيضا، أو تلتقطه، وتحميهم بأنيابها المكشّر عنها أو بمخالبها البارزة؛ من مُغير لاحم كالإنسان.

هذا مما سيُقرأ عنه في الحكاية التي تضمها دفتا هذا الكتاب؛ الذي حررته المؤلفة بناء على ما يجده المنقّبون الأثريون من مخلفات الإنسان القديم؛ في أماكن معينة ومحدودة، فهي كهوف في أجراف صخرية، أو بقايا مخيمات على ضفاف الأنهار والبحيرات، أو في الأودية، فالذي يتهيأ ويتأهل للضرب بالمَالَج في تربة مكان تم تحديده بناء على حدس مهني، وعلى خبرة وعلم واسع بالآثار، ليكشف عن بقايا هياكل الإنسان القديم العظمية، ومخلفاته من أشياء كان يتحلّى بها، أو أدوات صنعها ليُنجز بها أعماله ويُحقّق حاجاته اليومية، أو أطباق وأوعية وأواني؛ كان يحفظ فيها سوائله وطعامه؛ هو الباحث الأثري، وهو أول من يُشاهد ويُعاين

المخلفات المادية وهي ما تزال في أماكنها كما تركها الإنسان القديم، ويستطيع أن يُصيغ تفاصيل القصة مُعتمدا على ما هو ملموس، وعلى اللُّقيات الأثرية التي عثر عليها، وعلى ما استنتجه من أفكار لا ريب فيها؛ انطلاقا من كل ذلك، فمأوى واحد أقام فيه الإنسان القديم يُعطي فكرة واضحة -إلى حد ما- عما كان يجري، وما كان عُرفا بين أفراد جماعة بشرية.

فهذه الحكاية التي دُبِّجت بقلم الكاتبة؛ بضمير المتكلم؛ هي تقريب إلى القارئ؛ يجد فيها بعضا من صور ووصف حياة الإنسان القديم، وكانت -أي الكاتبة- أحد الذين ارتادوا -في بعثات علمية أثرية- المآوي التي كان يلوذ بها الإنسان من قيظ الجو أو من قَرِّه، ويَستَأْمِنُها على نفسه، والأماكن التي تَنقّل فيها؛ بحثا عما يمكن أن يصطاده من حيوانات ينعم بروائح شي لحومها اللذيذة، أو يجنيه من ثمار يستسيغ طزاجتها وحلاوتها وإفرازاتها السكرية؛ ليحيا ويحافظ

على نشاطه وقوته وعُنْفُوانه، ليستمر وجودُه على سطح الأرض.

أحمد القاسمي

(كاتب)

في عام 1445 هـ؛ الموافق 2023 م.

منذ مائة ألف سنة عاشت على هذه البسيطة جماعات إنسانية؛ لا نعلم عن نمط عيشها الكثير، تأقلمت وتفاعلت مع مُحيطها؛ لتخلُق المنطلق الأول لأولى الحضارات الإنسانية.

وهذه حكاية أسرة من تلك الجماعة البشرية مُتخيلة، تحاول أن تصف حياة ترحالها؛ هروبا من خطر الحيوانات المفترسة، كُتبت بناء على معلومات ميدانية أثرية، وما يُعثر عليه كالعادة من لَقايا أثرية من طرف المنقبين الأثريين، خلفها الإنسان القديم.

كانت ليلة أمس؛ ليلة دامية؛ قُتل فيها العديد من أفراد قبيلتنا؛ من جرَّاء هجوم الدِّببة وعراك طويل معها، لم نتمكن من الصمود أمام قُوَّتها وجشَعِها، فقد نَهَشَت أجسادَ العديد مِنَّا أمام عيني، فكان من

الضروري أن نرحل عن هذا المكان الذي تكاثرت به لنبحث عن ملجأ آخر.

ها نحن الآن في طريقنا للبحث عن ذلك المأوى الآخر، فنحن نعلم أنه من الصعب أن نجد مسكنا أجمل وأحسن من السابق، فموطنُنا القديم حيث هاجمتنا الدّببة الشَّرِسة، يضمن لنا جميع ظروف العيش، فالماء العذب يجري طيلة السنة من أمام الكهف، ومجموعات كبيرة من الطّرائد تقترب كل يوم من الماء، فلم يكن أبي مُجبراً على التنقل والخروج في رحلة صيد وسط الوحوش الضَّارِية.

ذهبنا للبحث عن المأوى الجديد؛ أنا وأمي، وأختي التي لم تتجاوز بعد حولها الثالث، وأبي الذي يعاني من بعض الجروح جراء هجوم الدببة، وبعضٌ من أفراد قبيلتنا الذين نجوا من هجومها الشرس، اِرتأى أبي ألا نتوغل في الغابات، ونسير مُتّبعين خط الساحل؛ بكل أمان؛ خطوةً بعد خطوة؛ فوق رمال الشاطئ

التي ترمز لنا إلى نهاية حدود هذه الأرض التي نعيش بها.

طالت الرحلة أياما وأياما، وأهلك الجوع العديد منا، ومنهم أنا وأصغرهم أختي، ولم يكن رجال قبيلتنا مُؤهّلين بأن يخرجوا في رحلة صيد للبحث عن الحيوانات؛ ذلك لأن أغلبهم مُصاب من التقاتل مع الدِّببة، ونحن ننتظر شفاءهم، لم يكن قُوتُنا لهذه الأيام سوى مَحار البحر، نجمعه أنا وأمي؛ من أعلى تلك الصخور الناتئة التي آلمت أرجُلنا كثيرا.

بعد أن جمعنا ما يكفينا لهذا اليوم من مَحَارٍ وسرطانات البحر، ذهبت أمي لتُحضّر النار لطبخها، فكعادتها تقوم بحفر حفرة دائرية الشكل في التراب، لكن هذه المرة كانت قد حفرتها وسط رمال الشاطئ، فالأمر أسهل لحسن الحظ، فبِما أننا بعيدون عن مصدر الحطب؛ اِضطرت أمي قدر الإمكان أن تجمع تلك النباتات اليابسة التي تنمو في

الرمال؛ لتُوقِد بها النار، فوضَعَتْها داخل الحفرة، وأمسكت بكِلتي يديها حَجَرَتيْن من (الصَّوان)[3]، فباشرت بضرب الواحدة بالأخرى، لتنبعِث شرارات نحو تلك النباتات اليابسة؛ ضربات مُتتالية سريعة؛ مكنت في الأخير من إشعال نار قوية؛ شكّلنا حولها حَلَقةً كي نمنع رياح البحر العاتية من إطفائها.

قامت أمي بوضع المحار فوق النار؛ لم يتطلب إلا وقتا قليلا فقط ليُصبح جاهزا للأكل. اِنشغل أبي وقتها بتسخين الحجر فوق النار؛ لصُنع رأس جديد لرُمحه الذي فقده أثناء العراك الدامي، فعملية التَّسخين تجعل من الحجر قابلا للتَّكسير، بمساعدة حجر صغير تُصنع به حدودُ الشَّظايا، ثم بعد ذلك وبضربة قوية من يديه تنقلع الشظايا التي سيصقلها هي الأخرى من جديد؛ ليُشكل رُؤوسا جديدة للرُّمح، ويحتفظ بأخرى ليصنع منها الأزاميل

[3] الصَّوان (silex): هو نوع من الحجر أُستعمل كثيرا خلال فترات ما قبل التاريخ في إشعال النار وصناعة الأدوات والأسلحة.

والمكاشط لتقطيع الطريدة[4]، حاولتُ مرات عديدة كي أصنع رأس حَرْبة خاصٍّ بي، لكِنَّني لم أنجح، ربما لأنني لست مُؤهّلا بعد، فقُوّتي البدنية ما زالت يافعة.

اِقتربت الشمس من غروبها، وما زالت أمي تبحث عن الأوراق والأغصان اليابسة، لتجمع الكم الكافي الذي سيضمن إشعال النار طوال الليل، لتُدفئنا وتحمينا من هجوم الحيوانات الضّارية، لأن عدو هذه اللدود؛ الذي تخاف منه؛ هو النار، فعندما ترى لهيبها المتصاعد تعود أدراجَها مُسرعة من حيث قدمت.

سطعت الشمس من جديد، ليبدأ اليوم الثاني لهذه الرحلة التي لا نعرف عن نهايتها شيئا، فهذه هي المرة الأولى التي سنستكشف فيها هذه الأراضي الجديدة، غادرنا موقد نارِنا مُتّجهين نحو وِجهة مجهولة، لم نأخذ

[4] تُسمى هذه التّقنية المستعملة في صُنع الأدوات؛ من طرف الإنسان القديم بالصناعة (الموستيرية) على المستوى العالمي، أما فيما يخص شمال إفريقيا فتُسمى بالصِّناعة (العاطرية) المتميزة بأدواتها المُذنّبة.

معنا شيئا سوى حجرتي (الصّوان) التي أمّنتني عنهما أمي، فهي لا تعلم إن كُنّا سنجد هذا النوع من الحجر أم لا، فهو أبسط لإيقاد النار، أما أدوات الصيد والتقطيع فهي في رعاية أبي.

أرهقتني أشعة الشمس، وما زال أبي مُتشبّثا بقراره، فإنه يمنعنا في كل مرة من الدُّخول بين ظلال الأشجار؛ تفاديا لأي هجوم شرس لأحد الحيوانات المفترسة، أما أنا فلم أعد قادرا على المشي في هذا الطريق الرملي المُتعِب، والملتهِب بأشعة الشمس، حملني أبي فوق كتفيه وأختي بين يديه، فاستطلعت الأفق بنظراتي، ما زالت الطريق طويلة؛ لا أثر لمأوى صخري أو مغارة، لكن يبدو لي أن المِسرب الرَّملي محدود بشريط أزرق يمتد نحو البحر.

ونحن نقترب خطوة بعد خطوة، إذ تتضح معالم طبيعة هذا الحاجز، إنه مصب لنهر كبير يحمل ماءَه من أعالي الجبال الموغلة في الداخل، لينتهي به الحال

إلى مياه البحر المالحة. عندما دَنوْنا من المصب لم نتمكن من الخوض داخل المياه لأنها جد عميقة، وحركة الأمواج العاتية قد تجُرّ أحدَنا، لذا فإن الحلّ الوحيد هو التوغل وسط هذه النباتات القصيرة، والأشجار العالية الكثيفة؛ إلى أن نجد طريقا أقصر للوادي، حيث المياه تجري جريانا خفيفا وهادئا.

لم يسمح لنا أبي مرة أخرى بالدُّخول؛ إلا بعد أن يستطلع المكان، فقد ذهب هو وجماعة من رجال من جماعتنا؛ تاركين خلفهم النساء والأطفال، ليتأكَّدوا من عدم وجود آثار قوائم الدّببة والضِّباع التي تهاجم الأطفال. بعد رحلتهم الاستطلاعية تأكدوا بأن المكانَ آمن، قُمْنا بالسير قُدُما تحت رحمة ظلال الأشجار الكثيفة، لقطع النهر إلى الضفة الأخرى، فاخترنا ملجأً رطبا تحت ظلال الأشجار، مُبتعدين بمسافة متوسطة عن المصب للتزود بالماء العذب، فالقاعدة تقول إنه كلما اقتربت مياه النهر

من البحر أصبحت أكثر ملوحة، يبدو أن هذا المكان لم تطأه أقدام بني آدم من قبل، فلا أثر لموقد به رماد، أو لشظايا صَوان، فنحن أوَّل الزائرين له.

بعدما وصلنا إلى مكاننا الجديد، اِنكبّ الجميع يشرب من مياه النهر، ليُطفئ بها حرارة جسمه وجفاف شفتيه، غَطَس أبي رأسَه في الماء، وأخذ يمسح بيديه المُبلّلتين ذاك الجرح الذي تسببت فيه الدِّببة المتوحشة.

اِستلقى أبي بعد ذلك تحت ظل الأشجار، يسترجع قُواه المُتبدِّدة، فجميعنا نُعاني من تعب الطريق، وأشعة الشمس قد أحرقت جُلودَنا، والأسوأ من ذلك أننا جِياع، لم نأكل شيئا بعد وجبة المحار، تمدّدْت أنا الآخر على فخِذ أبي أنْظُر إلى الشاطئ، وأتساءل أين تنتهي هذه المياه، فجأة خطف بصري جسم غريب يتحرك هناك بعيدا قُرب الشاطئ؛ أيقظت أبي وأنا أوجه أُصبعي نحو ذلك المخلوق الغريب، الذي

لم أر مثله من قبل، يبدو أن أبي قد علم ما هو، فقد همّ يجري نحوه، جعلني فضولي أجري أنا أيضا خلفه، سُرْعان ما وصلنا، إنه حيوان غريب؛ له رأس وأربع قوائم وذيل قصير، يزحف فوق الرمال ببطء، لا يُغطيه جلد ولا فَرْو، يحمل فوقه جسما ثقيلا وصلبا؛ إنه تُرس، يبدو أن أبي يعرفه حق المعرفة، فقد سبق أن صادفه، حمل أبي هذا الحيوان فإذا به يُدخل رأسه وأرجله داخل تلك القوقعة الصّلبة، إنه حيوان صالح للأكل، وإلا لَمَا حمله أبي معه نحو الموقد؛ إنه سُلحْفاة بحرية.

اِستيقظت باكرا، فوجدت أبي مُنهمكا في ربط رأس الحَرْبة الذي أعدّه ذاك اليوم إلى عصاه، يبدو أنه يستعد للخروج وحده بحثا عن طريدة كبيرة هذه المرة، فقد مرت مدة لم نأكل فيها حِصصا كبيرة من اللحم، فلحم السلحفاة لم يكف الجميع.

ذهب أبي نحو وِجهته غير المعلومة، نزلت أنا مُتجها إلى شاطئ البحر، أبحث عن أصداف بحرية متميزة؛ أصنع منها طوقا مختلفا عن تلك الأطواق التي يرتديها الآخرون، وأختي كعادتها تتعقب خَطَواتي وتتبعني أينما ذهبت. يحمل أبي في عُنقه صدفة نادرة في شكلها، صغيرة وجميلة ذات لون أحمر ووردي، كان يحملها جدّي، لكنّه بعد وفاته أصبحت هذه الصَّدفة الوحيدة ملكا له، فهو الآخر لا يعلم من أين أتت، ربما هي صنف من الصَّدفيات التي تواجدت من قبل على شواطئ البحر، وانقرضت فيما بعد، لكنني لن أتوقف عن بحثي، وسأغتنم فرصة وجودنا قرب البحر؛ لأبحث عن مثل هذه الصدفة النادرة كي أتميز بها عن الجميع؛ بوضعها في عُنُقي، فجميع أبناء عشيرتنا سينبهرون برؤيتها.

لم يحالفني الحظ اليوم؛ لأنني لم أجد ما أبحث عنه، فرجعت أدراجي أنا وأختي حيث موقد نارنا، فإذا بنا

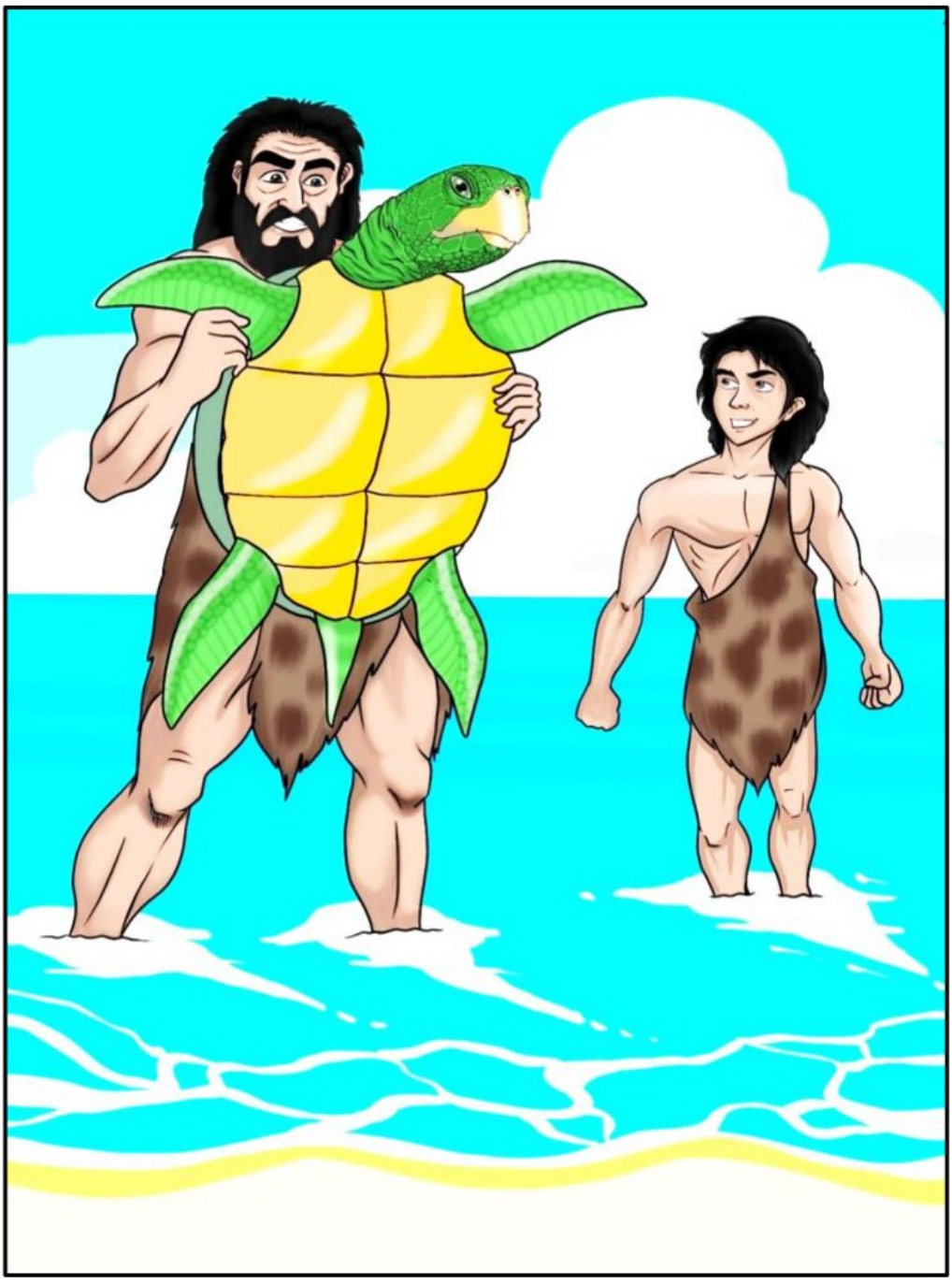

حَمل أبي هذا الحيوان فإذا به يُدخل رأسَه وأرجلَه داخل تلك القوقعة الصّلبة...

نجد أبي قد عاد من رحلة صيده بغنيمة كبيرة، فقد اصطاد خنزيرا بريا ذكرا في الغالب، لأن زوج أنيابه طويلان جدا، فهو ذو رأس ضخم وقوائم قصيرة، وفَرْوته بُنية اللون. اِنهمك أبي في سلخ جلد الخنزير عن اللحم، ثم فصل الرأس عن باقي الجسد، أما أمي فقد قامت بإيقاد النار؛ بأغصان الأشجار الميتة، فوضعت حول الموقد أحجارا، الواحدة بجانب الأخرى؛ مُشكلة دائرة لينضج اللحم فوقها. طُبِخت شرائح لحم الخنزير، فانهمك الجميع يأكل، وما زالت النار مُستعرة، فحمل أبي رأس الخنزير ووضعه فوق النار كي يُطهى طيلة الليل[5].

[5] حتّى لا يُساء الفهمُ في أكل لحم الخنزير كما حُكِي هنا؛ لأننا لا ندري ما إذا كان وجود هذه الجماعات البشرية القديمة؛ تزامن مع دين سماوي يُحرّم أكل لحم الخنزير أم لا، فعقيدتنا الإسلامية السمحة، والتي لا يُقبلَ الشكّ فيها؛ والحمد لله؛ تُحرّم علينا تناوله بأي طريقة من الطرق، وكما سبق أن ذُكر من قبل في التقديم لهذا الكتاب، وفي الفقرة الثانية من مَتن القصة، فإن ما استند عليه هذا النص المحكي هو دلائل أثرية مادية ملموسة عُثِر عليها في أماكن تواجد الإنسان القديم.

في الغد أشرقت الشمس، ورائحة شواء رأس الخنزير تملأ الأجواء، لم يبق من لهيب نار الموقد إلا الرماد، أخذ أبي رأس الخنزير بين يديه، فلاحظت أن النار قد التهمت كل الجلد الذي كان يكسوه، وأصبحت عظام جمجمته ذات لون رمادي وأسود، لم يبق سوى ذلك اللحم الرطب المتواجد داخل فكيه، اِقتلع أبي أنياب الخنزير من جِذْرها، ولَفَّها بجلد غزال قديم يحمله معه دائما حيثما اِرتحلنا، أما جلد الخنزير فقد قام بنشره فوق صخرة تسطع عليها أشعة الشمس، لكي يجف ويتخلص من رائحته النتنة.

نزلت مرة أخرى إلى شاطئ البحر أبحث بين تجويفات الصخور عن تلك القواقع النادرة، لكنه وفي كل مرة تُهاجم السرطانات أرجُلي العارية بملاقِطِها، لذا فقد رجعت إلى موقدنا؛ لم أجد أمي، إنها هناك قرب تلك الصخرة حيث جلد الخنزير، إنها تحمل في

يديها واحدة من تلك المكاشط[6] التي أعدها أبي، فتقوم بتخديش الجلد لإزالة الشحوم، وتلك المادة اللّزِجة الملتصقة عليه، لتساعد على تجفيفه، فالظاهر أنها تريد صُنع كِسَاء جديد لها من الجلد.

لم تستغل أمي جلد الخنزير وحده، بل أخذت عظمة فكه الكبيرة، وأخذت تصقلها هي الأخرى بمِكشطها، ثم تَبرُدُها على صخرة كبيرة بحركة تلو الأخرى؛ إلى أن حصلت على مستطيل متساوي الأطراف، ليّن الملمس وأبيض اللون، بعد ذلك وبشفرات الصَّوان الحادَّة التي يحتفظ بها أبي، شكلت على طول المستطيل فراغات طويلة، وكأنها ترسم أسنانا مُطوّلة، لم أتمكن في بداية الأمر من معرفة ما هي بصدد صُنعه، لكنّ صورة هذا الشيء قد اكتملت الآن لدي؛ بعدما نظرتُ إلى أختي وهي تتوسل إليها طالبة منها أن تعطيه إيّاها، إنه مُشط

[6] المكاشط جمع لمكشطة، وهي أداة اِستعملها الإنسان القديم في غالب الأحيان؛ من أجل مُعالجة الجلود الحيوانية.

للشعر يشبه كثيرا مُشط أمي المكسر، غير أن هذا الأخير كان جميلا؛ ذو لون أبيض ورمادي، فهو مصنوع من عاج وحيد القرن.

في صباح اليوم التالي، قرَّر عدد من قبيلتِنا أن يهاجر من هذا المكان باحثا عن مأوى جديد، في حين أن الكثير منهم لم يرغب في الرحيل، فالجو هنا وظروف الحياة مُلائمة. لكن أبي وأمي لم يكونا مُقتَنِعيْن بهذا المكان، فالجو هنا رطب جدا والبرد قارس أثناء الليل، كما أن فصل الصيف قد أوشك على الانتهاء، ومن الضروري أن نبحث عن ملجأ يُخفّف قَسْوة البرد، ويَقِينا من مياه أمطار العاصفة.

اِنطلقنا نحن في ثلاث مجموعات نحو وجهة غير معروفة، في حين أن أكثر من أربع مجموعات لم تُقرّر الرحيل بعد. لم تكن وجهتُنا مُحدّدة، ولا ندري كم سنقطع من مسافة لنجد مَسْكنا تحت الصخور، أو غارا يَحْتَضِنُنا لينتهي عناء الرّحيل والسّفر هذا، فمن

الصّعب أن نجد مغارة خالية، فأغلبها مسكونة بأُناس وجماعات أخرى؛ حتى أنه في بعض الأحيان تقوم صراعات، ومُشادَّات، وتماسك بالأيدي بين أفراد القبائل للحصول على هذه البيوت الصخرية الآمنة.

كان طريقُنا ساحليا كرحلتنا الأولى، نسير بمحاذاة حدود رمال الشاطئ لكي لا نتوغّل في الدّاخل. ما زالت الشمس حارَّة، وأطفال مِنّا قد تعِبوا من طول المشي، أخذنا قسطا من الراحة تحت ظل شجرة عالية؛ لكي نلتقط أنفاسَنا. اِستلقى أبي من شِدّة تعبه، فإذا به ينهض فجأة ويتسلق الشجرة بحذر؛ غُصنا بغصن، ثم يقترب من عُشّ نصبَته العصافير لصغارِها، وينزل من الشجرة، وفي كَفِّه أربع بيضات بُنّيات اللون؛ أعطاني أنا وأختي اثنتيْن، والباقيتيْن إلى بعض الصغار من قبيلتنا؛ تقاسموهما فيما بينهم، فقصْتُ البيضة مباشرة في فمي كما يفعل أبي

كعادته، فالسائل اللزج الذي بداخلها سيُعطينا نحن الصغار طاقة؛ لنصمد أمام عناء التِّرحال.

اِستَأْنفْنا رحلتَنا بعد هذه الفُسحة، فمَرْمى نظر عيونِنا يقول إن الطّريق ما يزال طويلا ولا وجود لمأوى. مضت ساعات وساعات، ونحن نقطع المسافات وسط هذه النباتات القصيرة، نُصدر أصواتا قوية بأرجلنا كي نُبْعِد عنّا الأفاعي التي تخْتَبِئ، وتنسحب عند سماع الصوت. فجأة نرى هنالك بعيدا عن الساحل بعشرين قدما مُنحنًى صخريا عاليا؛ يبدو من الوهلة الأولى أن به مأوى؛ لكنه صغير الحجم، وسطحه قليل الارتفاع، ونحن نقترب بتنبُّه راجين ألا نجد به قاطنين من بني البشر، أو من حيوانات لاحمة مفترسة، كمجموعة من الثعالب أو الخنازير البرية أو الضِّباع، فهذه الحيوانات في طبيعتها تكون أكثر شراسة؛ عندما تكون في مجموعتها، ليُهاجِم جميعُ أفرادها؛ كبارا وصغارا.

توقف الجميع بعيدا عن هذه المغارة الصغيرة، ليتسلل رجلان من قبيلتنا بتمهّل؛ من وراء الأشجار وهما يُدقِّقان نظرَهما في الأرض، باحِثَيْن عن آثار أقدام أو حوافر؛ تدلُّهما عن طبيعة هذا الكائن الذي قد يتواجد بهذا المأوى، لكنه واضح أن المكان خال، أما الأرض فبها القليل من الوطآت، فعادة في فصل الصيف تُفضِّل جميع الحيوانات الخروج والبحث عن الفرائس.

يبدو أن الملجأ آمن، فقد رفع الرجلان أيديَهما بإشارات إلينا كي نلحق بهما، ركضتُ إليهما مُسرعا، إنها مغارة أصغر من تلك التي كنا نقطن بها، كما أنه سبق أن كانت مسكنا لجماعة ما؛ قد هاجرت منذ فترة قصيرة، فالموقد الذي استعمله أفرادها ما يزال به رماد، وبعض من عظام لحم غزال مشوي، بالإضافة إلى قواقع الحلزون التي تملأ المكان، وبقايا صنع المكاشط ورؤوس السهام.

لا ندري سبب هجرتهم لهذا المكان، لكن ما نعلمه هو أنهم سيرجعون في يوم ما إلى مأواهم هذا؛ ربما في فصل آخر أو في عام آخر، فمن المؤكد أن لهم مسكناً أكبر لقضاء فصل الشتاء؛ ليس بعيدا من هنا، يضمن لهم جميعَ ظروف العيش المناسِبة، وإلا لَما هجروا هذه المغارة.

دخل الجميع مُحتمين تحت هاته الصخور الباردة؛ من أشعة الشمس وسخونة الجو التي تخنق المكان، فجميع المخلوقات فوق هذه الأرض قد بحثت عن ظل تأوي إليه؛ تحتمي به من الحرّ. لم يكن مسكننا الجديد هذا قريبا جدا من الشاطئ كالذي كُنّا فيه، كما أنه لا وجود لمجرى نهر أو عين هنا بجواره، نتزود منهما بالماء. ففي غالب الأحيان إن لم تَكْشِف لنا الناحية عن مصدر ماء صالح للشرب، لن يطول بقاؤُنا هنا طويلا، فحياتنا فوق هذه الأرض مرتبطة

به، فأينما وُجد الماء وُجدنا نحن البشر، فالماء هو صاحب القرار؛ يختار المكان الذي سنعيش فيه.

همدت أشعّة الشمس، وبدأ يقترب قُرصُها من خط الأفق العريض، خرج كِبارُنا للبحث عن القوت في أرض ما وراء المغارة مُتوغّلين وسط الأشجار، أما نحن الصغار فقد كان مَقْصِدنا الشاطِئ؛ نجري ونلعب فوق حبات رماله التي ما زالت تحتفظ بسخونة شمس الظهيرة. وجّهت أختي اهتمامَها إلى جَمْع القواقع البحرية التي يُلقِيها البحر بمختلف أشكالها، وألوانها؛ الوردية والحمراء والبيضاء، أما أنا فقد انشغلت عن ذلك بالنظر إلى مُجسّم الزرافة الخاص بي تارة، والنَّظر إلى البحر الشاسع الأزرق تارة أخرى، فجأة سمعت هُتافات مصدرها رأس التلّة حيث توجد المغارة، فأدَرْت رأسي، فعرفت أنهم الرجال؛ قد عادوا بسلام من الغابة، ورأيت أبي يقترب رويدا رويدا، يحمل بكِلتي راحَتيْه طيوراً من

أرْجُلِها، يبدو أن الحظ لم يحالفه اليوم بطريدة كبيرة، فالمنطقة هنا رطبة جدا، فإذا ما توغل في الغابة وبين تلك الأشجار والنباتات الكثيفة، فسيكون هذا آخر شيء يقوم به.

اِصطاد أبي ستة طيور، بدأ بِنزْع الرِّيش عن جِلْدِها ريشةً ريشة، فانْضمَمْنا إليه أنا وأمي وأختي؛ نساعده في نَتْف الريش، إنها عملية غاية في الصُّعوبة، لكن طَعْم هذه الطيور ألذ من لحم الخنزير الذي تناولناه آخر مرة.

بعد تناولِنا لهذه الوجبة اللذيذة رافقنا أمي إلى الغابة آخذين جميعنا تَأهُّبَنا، فأوانينا القديمة قد هجرناها بعد هجوم الدّببة، لذا فمن الضروري أن نصنع أخرى جديدة؛ كي يتمكن أبي من حملها معه لإحضار الماء فيها. أخذت أمي بيدها ورقةَ شجرة كبيرة، فتوقفنا قرب حفرة صغيرة يبدو أن حيوانا ما قد حفرها؛ بها تراب أحمر؛ هشٌّ وصاف، فأخذنا معنا منه كمية لا

بأس بها؛ أضافت إليها أمي قليلا من الماء، فأصبحت عجينةً كُروية الشّكل.

أخذت أمي كتلة الطين وجلست في زاوية من زوايا المغارة، ثم أطلقت العنان ليديها، وأخذت تعجن بخِفّة ذلك الطين حتى أصبح عجينة مُتماسكة، صنعت منها قطعا طولية، من الأقصر إلى الأطول، ثم وضعت أمامها حجرة مصقولة مُسطّحة؛ رشّتها بقليل من الماء، فسطَّحَت فوقها بعض العجين الطيني صانعةً منه قُرصا، ثم أخذت بعد ذلك أقصر القطع، وألصقتها بأصابعها فوق جوانب القرص، فتَسلْسل عملُها واضعة القطعة الطولية فوق الأخرى من أقصرها إلى أطولها؛ الواحدة تلو الأخرى، حتى حصلت على آنية مخروطة الشكل، ثم أخذت بعد ذلك حجرا مِسنّا، وبدأت تصقل جوانب الآنية؛ كي تلتصق هذه القطع من الطين ببعضها البعض.

بعد أن أصبحت جوانب الوعاء ملساءَ لا وجود لثقب أو نتوء بها، أخذت أمي قوقعة كتلك التي أصادفها فوق الرمال، وأنا ألعب على الشاطئ، ثم أخذت تطبع بجوانب تلك القوقعة المتموجة آنية الطين الطرية، وهي ترسم بها خطا قرب خط إلى أن تكتمل الدائرة، فاكتملت الآنية بزخرفتها الرائعة التي تُتقنها أمي، وبَدَتْ مزخرفة بخطوطها المتموجة التي تشبه أمواج البحر.

كنت أنا وأختي في هذه اللحظات بِصَدَد صُنع مُجسّمات من الطِّين؛ نلعب بها نحن وأبناءُ قبيلتِنا، شكّلت أختي اِمرأةً صغيرةً من الطين؛ تشبه في هيئة جسدها أُمّي كثيرا؛ غير أن ملامحَها لم تكن واضحة، أما أنا فقد قُمت بتشكيل زرافة ذات عُنُق طويل وأربع قَوائم؛ يبدو أن مُجسّمي مُعقد جدا، لذا فقد كان من الصعب أن أتحكم في ثبات الأرجُل، فقد كان حُلمي الوحيد أن أُشكّل الجسد أولا لأتركه

يجفّ، ثم أُلصِق به القوائم والرَّأس، فليس من السهل أن أصوِّر هذا الحيوان على عكس أختي، فقد كانت بارعة في تجسيد أمي.

حَملتْ أمي الآنية بعد الانتهاء من تزيينها باحتراز، لكي لا تنكسر أو يلتوي أحد جوانبها، فهي ما زالت طرية ولينة، وَضعتْها هناك فوق تلك الصخرة، التي تسطع عليها أشِعّةُ شمس الصيف الحارة؛ لتجفّ وتصير صُلْبة، فتبعناها مُسرعين نحن الآخرون أنا وأختي لنترك مُجسّماتِنا تجفُّ هي الأُخرى.

أوشكت الشمس على الغروب، وصوتُ هيجان الأمواج يرتفع أكثر فأكثر؛ لتحمل نسائم البحر رائحةَ الطحالب والأعشاب والأسماك والمحار؛ إلى حَواسّ قاطني اليابسة[7]، منظر كلما رأيته يجعلني أتساءل عما يمكن أن يوجد وراء الأفق، أهناك عالم

[7] اليابسة: مصطلح جغرافي يعني البر، أو الأرض التي لا تغطيها المياه؛ سواء كانت بحرا أو بحيرة أو نهرا، وهو أكثر سكنى بالبشر منه على الماء.

ثم أخذت تطبع بجوانب تلك القوقعة المتموجة آنية الطين الطرية...

آخر مختلف عن هذا الذي نعيش فيه؟ أم أنه لا أمل في وجود شيء، وأن كلام الكبار الذي يقول إن هذا الأفق هو نهاية أرضنا؛ صحيح؟

أعَدّتْ أمي الموقد قبل أن يَنْسدِل سِتار ظلامِ اللّيل، فأُضيئت الأجواء بنور اللهب الحامي، أحضرت أمي آنيتها، فوَضعتْها وسط النار المشتعلة؛ كي يَسْتوي الطين فيُصبح فخّارا قاسيا، ومُقاوِما للإعوجاج، تُدير أمي في كل مرة آنيتَها لِتُشوى من جميع جوانبها، أما مجسماتنا أنا وأختي، فقد أخذناها هي الأخرى ووضعناها قرب الموقد؛ كي تمتص الحرارة فقط، فنحن لانريدها أن تُشوى، فإذا ما طُهيت فوق لهيب النار سيُصبح لونها أسود قاتما؛ كما هو الحال في آنية أمي، فبعض من جنباتها أسود وبني اللون؛ بسبب تعرضها المباشر لألسنة النار.

اِنتهت أمي من طهي الوِعاء، فأبعدته عن الموقد لتذهب هي وأختي إلى النوم، أما أنا فقد رفضت أن

أُغمِض عيني في تلك الليلة، فما زلتُ مُنشغلا عن النوم بتمثال الزرافة الخاص بي، أتمعّن فيه؛ وفيما صنعت أناملي، فسماءِ هذه الليلة مُضاءة بنور ذلك القُرص الفِضّي السَّاطِع؛ مع مجموعة من النجوم التي تتحلق حوله، فعددها هذه الليلة قد ازداد عما عددته ليلة أمس.

سطعت شمس صباح جديد، فتحلّق حوْلَنا أنا وأختي كلُّ أطفالِ قبيلتِنا، فالجميع مُندهشٌ مما صنعنا؛ حتى أن بعضاً منهم طلب أن نَصْنع له واحدة، ومنهم من توسَّل أبويه كي يُساعداه على صُنع تماثيل كالَّتي صنعناها، يبدو أن شمس هذا اليوم لن تغيب حتى يحصل كلُّ واحد منهم على مُجسّم يكون مُلكا له.

صرخت أمي في وَجهينا؛ كي نُوقف ضَوْضَاء تجمُّعِنا هذا، ونلحق بها؛ يبدو أنها ستُكلِّفُنا بمهمَّة ما، جرينا نحوها، فإذا بها تُرسل أختي لتُحْضِر آنية الطين المخبأة

قرب الموقد الخاص بنا؛ هناك تحت الشجرة، وأمرتني أنا أن أترك مُجسّمي في مكان ما، لأننا سنذهب لِجَمْع الحلازين من هنالك قرب الوادي، لكنني رفضت بالمرة، لأنه إذا ما تركت زرافتي هذه في مكان ما، أو حتى إذا ما أخفيتها، فمن المؤكد أنني لن أجدها عند رجوعي، لهذا سأحملها في يدي لتُرافقني طيلة يومي هذا.

أحضرت أختي الآنية إلى أمي التي كانت مُنشغلة عن كل شيء؛ في الحديث مع أُخْتِها، لتُقنعها بعدم الذهاب معنا، وهي تحمل ابنها ذي الثمانية عشرة شهور، لكن خالتي أصرَّت على الخروج معنا لترتوي بماء يجري في أدغال الغابة. حملنا آنيتنا وآنطلقنا نحن الخمسة –أنا وأختي وأمي وخالتي وابنُها الرضيع– إلى الغابة لنبحث عما نَأْكلُه ونشربُه، لنسُدّ جوعَنا ونُطْفئ ظَمَأنا، إن النَّباتات الشّوكية تَنْبُت في كل مكان، حيث تشبثت بها أعداد لا تُحصى من

الحلازين، فبدأنا نجمعها في آنيتنا الطينية، فهذا هو قوتُنا لهذا اليوم، كما أنه الطّعام المفضل لدى الجميع؛ إننا نختار الأكبر منها؛ تاركين تلك الحلازين الصغيرة لكي تعيش وتتوالد من جديد، ونحن نجمع الحلزون؛ كنا نتوغل داخل الغابة بتيقظ لنبحث عن الماء، سبَقتْنا خالتي وهي تحمل ابنها على ظهرها سائرة بين الأشجار، فهي شُجاعة لا تخاف الحيوانات، ما زلت أنا وأختي نمشي بجانب أمي مُتمسِّكيْن بها؛ نجمع نحن وهي قوتَنا، فجأة سمعنا صَرْخة تأتي من داخل الغابة؛ إنه صوت خالتي، ألقت أمي الآنية المليئة بالحلزون، ومسكت مِحكّاً حادّا بيدها، وركضت هناك نحو المكان الذي يصدر منه الصوت، تبِعناها أنا وأختي، صُدِمنا نحن الثلاثة من هول منظر؛ إنها خالتي تُصارع ذئبا قد أمسكها بمخالبه، وغرز أنيابه الحادة في فخذها، ورضيعها الصغير يملأ المكان صُراخا، هرب الذئب عند رؤيتنا،

لكن خالتي لم تقدر على النهوض، فالدماء تملأ المكان، أمرتني أمي بأن أحمل ابنها وأعود إلى المغارة أنا وأختي راكضيْن؛ لإبلاغ رجال قبيلتنا بما حدث. نفّذنا ما أُمرنا به في الحال، فحملتُ ابن خالتي بذراعي اليمنى، وأمسكتُ بيدي اليسرى أختي المتهاوية من صدمة الحادثة، وأطلقت العنان لرِجْلَي؛ ولم أتوقف إلا وأنا ألهث أمام المغارة؛ أُخبرهم بما حدث، فإذا بالجميع يقوم من مكانه، تركتُ الصغير وأختي في ركن من أركان المغارة، لأدُلّ رجالَنا على مكان أمي وخالتي. عند وصولنا رأينا كيف أصبح التُّراب من حولهِما بُحَيْرةً من دِماء خالتي، وأصبح جسد خالتي أبيض كالثلج، أما لون شفتيها فلن تُفرّقه عن لون جسمها، إنها ترتجف وتفقد أنفاسها الأخيرة، لم يعد عضو واحد منها يتحرك، لقد توفيت بعد هذه اللحظة، وذهبت روحُها إلى السماء، اِنهمرت دموع أمي، وبكت بكاءً شديدا، وهي

تحتضن جسد أختها البارد كالصّقيع، لقد كانت شقيقتُها الصغيرة والوحيدة؛ بعد أن توفي أخوها الأكبر في عراكِنا مع الدِّببة، لقد فقدت أقرب الناس إليها أمام عينيها، ولم تتمكن من إنقاذها في الوقت المناسب.

حمل الرجال الجثة الهامدة إلى المغارة، فإذا ما تركوها سترجع الذئاب، وتأتي الضباع لتنهشها وتأكلها، أما أمي فقد تهاوت ولم تقدر على الوقوف، فهذه أول مرة أشاهد فيها أمي في هذه الحالة، إذ لم أرها يوما ضعيفة كما رأيتها اليوم، أمسكت بيدها اليمنى وشجّعتُها على النُّهوض؛ لنترك هذا المكان الموحش ونلحق بالرجال.

وصلنا إلى المغارة،كان جسد خالتي مُسجًى هناك بلا حَراك، والجميع يَسْترِق النظرات إليه مبهوتا من شدة الفاجعة، أما ابنها الرضيع فلم يصمت من صراخه الذي يملأ المكان، فالمسكين لا يدري بأن

مصيره سيكون كمصير أمه الميتة، فهو الآخر سَيَقْضي[8] جوعا، لأنه ما يزال رضيعا غير مفطوم، لا يشرب شيئا غير حليب أمه التي فقدها، كما أنه لا وجود لامرأة مُرضعة في جماعتنا لإنقاذه من البَلْوى التي أصابت أمه.

مرت أربعة أيام لم يصمد فيها الرضيع، ففي منتصف الليل توفي من شدة جوعه وبكثرة صراخه، حملته أمي ووضعته بالقرب من أمه، تألم الجميع لما حدث، والحزن يُخيّم على الكبير والصغير، ونحن نراهما ساكِنيْن بلا حركة بعدما كانا البارحة بقُربنا، وضحكات الصغير البريئة تُميل قلوب الجميع إليه ليُحِبّوه.

في صباح اليوم التالي، أصبحت الرائحة في الغار لا تُطاق بوجود الجثتين وبقايا الطعام، تأهب الكبار لِلْأَمر، فحفروا حفرة مُجوّفة الشّكل داخل المغارة؛

[8] سيقضي بمعنى سيموت.

عند وصولنا رأينا كيف أصبح التراب من حولهما بحيرة من دماء خالتي...

تحدّها صخور كبيرة حيث سيتّكِئ رأس الميتة، وُضعت الجثة داخل هذه الحفرة الضيقة على شكل جنيني كما هو الحال دائما، وحيث حاول الجميع أن يضم جميع الأطراف إلى الداخل، ثم وضعوا في الأخير ابنها فوق صدرها ليرقد رقدته الأخيرة بجانب أمه التي لم يفترق عنها يوما[9].

لم أقدر على رؤية مراسيم الدفن، غادرتُ المغارة نحو شاطِئ البحر، جلستُ على إحدى الصخور أتأمل هذه الأرض وما يدور حولنا، حياتنا مُهددة في كل لحظة بالخطر، نحن والحيوانات البرية في صراع دائم، فكلانا يقاوم من أجل الحياة، تُهاجِمنا لجوعها أو لخوفها منا وكذلك نحن، فهدفنا واحد، لكن السؤال:

[9] في سنة 2006 م كشفت حفريات مغربية-أجنبية لفترة ما قبل التاريخ؛ بمغارة (الهرهورة 2) بمدينة (تمارة) التي توجد إلى الجنوب الغربي من (الرباط) عاصمة المغرب، عن وجود قبر لأنثى بالغة قد تعرضت عظام رجلها لهجوم حيوان مفترس. يرافق قبر هاته الأنثى عظام لطفل صغير يبلغ من العمر ثمانية عشر يوما؛ لم يتبق من هيكله العظمي سوى جزء من جمجمة رأسه، مما دفع علماء الآثار إلى الاستنتاج؛ بأن الأنثى هي أم الرضيع الذي دُفن معها بنفس الحفرة.

لماذا وُجدنا فوق هذه الأرض وما الغاية من وجودنا؟ أسئلة تُحيرني في كل مرة أُقابِل فيها هذا البحر، ففي كل مرة أراه ينتابني شعور بأن هنالك أرض أخرى ما وراءه، قد تكون كهذه التي نعيش بها؛ تسكنها جماعات مثلنا، أو قد تكون أروع منها.

رجعت إلى المغارة بَعْدما احمرّ جلدي بأشعة الشمس الحارة، تمددت فوق الأرض الباردة، فالمغارة تظل باردة ورطبة في كل الفصول، لم أتمتع كثيرا باستلقائي، فقد أمرني أبي بالانضمام إليه؛ جلسنا معا قرب الموقد المتّقد نارا، ناولني حجرا كبيرا من الصَّوان لأصنع رأسا للرمح؛ يبدو أن أبي قد قرر أخيرا أنه آن الأوان لأتعلم الصيد، وأرافقه في رحلاته إلى البراري، كبقية الأطفال الذين يكبرونني سِنّا، إنهم يُتقنون الصيد أحسن من الكبار؛ لسرعة حركتهم، حتى أنهم يقتربون من الطريدة قدر المستطاع، ثم ينقضّون عليها بحِرابهم فيُسقطونها أرضا.

أمسكتُ حجَرَ الصّوان الكبير، وبدأت بكسر تلك الشفرات العريضة الواحدة بعد الأخرى، كما رأيته يفعل تماما عدة مرات، لم أجِدْ كلَّ الشّفرات التي نَحتُّها سليمة، فهناك ما تَحطَّم منها، لكنّ أغلبها جيد وقابل لصنع المِحكات ورؤوس حراب.

أخذتُ واحدةً من هذه الشَّفرات العريضة، وضعت طرفها على صخرة كبيرة حيث سأصقلها، عكسا أبي فهو يستعمل جلد الغزالة فوق فَخِذِه الأيسر ليعمل فوقه، لست مُؤهّلا لفعل ذلك الآن. غادر أبي وتركني أصنع رأسا لسِناني[10]، بدأت بصقل الجوانب إلى أن حصلت على زاوية حادة كزاوية المثلث، ثم بدأت بصقل رأسها المربع الشكل في الأسفل، ليأخذ رُمْحي شكل المثلث الملتصق بالمربع، فهذا الأخير هو ما سيُمكّنني من ربطه مع الجزء الثاني للرمح، وهو غصن شجرة مقطوع.

[10] السِّنان هو نصل الرمح.

أمضيت وقتا طويلا في صُنعِه، ففي كلِّ مرّة لا أُتقِن فيها المثلث؛ أرميه وأحمل حجرة جديدة، فمن الضّروري أن يكون المثلّث تامّا في شكله، وذي حوافّ حادة ورقيقة، ليتمكن من التوغل بسرعة في جسم الحيوان، فصُنع رأس رمح واحد غير كاف، فكثيرة هي المرات التي يسقط فيها الرمح، أو لا يخترق جلد الطريدة أو يتكسّر، لذلك فمن الضروري أن نصنع الكثير منها.

لقد أنهيت تشكيلَ الصّوان، وصنعت رُمحين؛ لم يتبق الآن سوى أن أبحث عن غصن شجرة ميت لأصنع العصا. نهضت من مكاني، وفجأة وجدت أن الشمس قد أوشكت على الغروب، لقد غرقتُ لأُذني في كومة الصَّوان هذه وقتا طويلا؛ حتى أنني لم أكترث لما يدور حولي، فقد جَلَبتْ أمي الحلزون من داخل الغابة، فهي شجاعة ورشيقة؛ لاتهاب شيئا، فكثيرة هي المرات التي خَرجتْ فيها لتصطاد لنا ما نأكله؛

عندما يكون أبي منهك القُوى ومُتعبا، أو عندما يرفض الخروج في رحلة صيد، إنها امرأة تُتقن جميع الأعمال.

لقد داهمني الوقت، والشمس قد غابت وصارت الظُّلمة تملأ المكان؛ لن أتمكن من الخروج للبحث عن الغُصون الميتة، ها هو أبي يقترب على مهل؛ قادما من الغابة، وهو يحمل عودين طويلين من الأغصان أعطاهما إياي، يبدو أنه يعلم مُسبّقا أنني لن أتمكن من إنهاء صنع رؤوس الرماح مبكرا، لذا فقد أحضر لي العصا وأليافا من النباتات القوية، لأكون مُستعدا غدا؛ للذهاب معهم باكرا.

الموقد مشتعلٌ والجميع منشغِل عن جميع الأعمال والأشياء؛ يأكل الحلازين، نادتني أمي عدة مرات؛ لكنني رفضت، لأنّي مُنشغل عنها بصنع عصا الرُّمح. جلستُ قرب النار حاملا مِكشطا من مكاشط الصَّوان الحادة التي صنعتها، وبدأت في إزالة لحاء

الغصن اليابس بيدي، بعدما تخلصت منه بدأت في تسخين الغصن من الجزء الذي سأربط إليه رأس الرمح، فمن الضروري أن يُسخّن الخشب ليتحرّر من نسبة السوائل المختزنة فيه، وليُصبح قاسيا كالحجر، أضعه في كل مرة فوق النار؛ مُنتبها لكي لا يحترق، فيصقل جوانبه بالمِحكّ، ليُصبح الرمح في رِقّة متناول يدي، أخذت رأس الحربة ووضعته فوق رأس العصا، ثم أدرت عليهما ألياف النباتات الخضراء القاسية؛ مُحْكِما عليها بكل قوتي عُقدا من الصعب فكُّها. اِنتهى الجميع من أكل الحلزون وغَطّوا في نومهم العميق؛ إلا أنا فما زلت مُستيقِظا؛ أُدقق النظر في رُمحي هذا لأكتشف عيوبه؛ لكنني أظن أنني قد نجحت في صُنعه، فالفرحة تملأ قلبي؛ حتى أني لم أتمكن من النوم؛ أنتظر سطوع الشمس بفارغ الصبر، اِحتضنت رُمحي واستسلمت للتعب؛ مُتمنيا أن أعود

غدا بطريدة كبيرة تفرح لها جماعتنا، ويُمجِّدني بها الكبار والصغار.

صحوت على صوت خَطَوات والدي، واللحظة التي انتظرتها قد اقتربت؛ لم تشرق الشمس بعد؛ إذ لم يظهر منها شيء سوى ضوء أشعتها، فهذا هو الوقت المناسب للتحرك داخل الأدغال، لأن الحيوانات قد خرجت من عَرائِنها وجُحورها ومخابِئِها؛ تبحث عن قُوتِها هي الأخرى.

اِستيقظ الرجال، واستعد الجميع بعُددهم من رماح وشفرات؛ إلى رحلة اختباري في الصيد، حملت أنا الآخر رُمحي الذي يبدو كالذي يحمله الجميع بِجُلّ المواصفات، أخذه أبي من بين يدي، ورفعه إلى أعلى قُبالة أشعة الشمس يتفحص حِدَّته وصلابَة العصا؛ لم ينتقدني في أي شيء، أرْجَعه إلي وابتسم في وجهي ابتسامة الرضا والفخر، أحسست حينها بالشجاعة والقوة، وبأني سأنجح بكل تأكيد.

مشينا نحو وِجهتنا هناك داخل الغابة، الكل يتسلل بين جذوع الأشجار، ويمشي بخطوات خفيفة ورشيقة دون إصدار أي صوت، فخشخشة صغيرة قد تتسبب لنا في حادثة كبيرة، أَعُيُن الجميع مُنفتحة بغير المعتاد؛ تبحث هنا وهناك عن كائن ما، وهي مُتجهزة في كل لحظة للتصدّي لأي هجوم مُباغت، فالغابة بطبيعتها وبكائناتها الخطِرة تتطلب السرعة والحذر والقوة والشجاعة، فليس لأي أحد الحق في الخطأ، وإلا فإن العواقب ستكون جسيمة على الجميع.

وأنا أمشي وراءهم؛ تنتابني مخاوف كثيرة، ومشهد حادثة خالتي يتمثل أمامي في كل لحظة، لكنني أتماسك وأقاوم؛ لسبب واحد هو أن الجميع هنا ينظر إلي في كل لحظة خوفا علي، فنظراتهم هذه تزيد من طُمأنينتي أكثر فأكثر.

توغلنا أكثر داخل الغابة، فجأة كفّ الجميع عن الحركة، فالرجل المتواجد في المقدمة أعطى إشارة

بالتوقف، إنه جسم ما مُختبِئ وراء الأشجار، فبالكاد أرى جزءا صغيرا من فَرْوِه البُنّي، قد يكون ثعلبا أو ضبعا أو حتى كلبا بريا، لكنه يبدو أنه أكبر من ذلك. أشار إلي أبي بالتقدم إلى الأمام نحوهم، ازداد قلبي خفقانا، وقبضة يدي على الرمح ترتعش، وأنا أحاول الإمساك بكل قوتي رغم أنها انهارت، الكل ينظر إلي بنظرات تشجيع وأنا أقترب ببطء من هذا الكائن الذي لم أعلم حتى عن طبيعته أو حجمه، ينتظرون ما سأفعله به، نظرتُ إلى أبي فأعطاني إشارة بعينه لكي أرمي رُمحي عليه أنا الأول، فينقضّ عليه الجميع برماحِهِم ورائي، جمدت في مكاني وقلبي يكاد يقف من خفقانه، أرجعت رُمحي الذي أُمسكه بيدي اليمنى بكل قوة إلى الوراء، وكأنني سأقذف بحجر إلى أبعد نقطة ممكنة، وأنا مُركّز على الجزء الواضح من هذه الطريدة، رميتُه، فإذا به ينفلت من يدي نحوه، فجأة رأيت عيون ذلك الحيوان قد لَحظَتْني، فإذا به

ينهض بسرعة ويتّجه جريا صوبي، إنها أنثى خنزير برّي؛ لم يصِب الرمح الهدف.

أطلقت العنان لرِجلي الخفيفتَين، لكن أنثى الخنزير كانت أسرع مني، لقد فاجأت الجميع، صدمتني أنا وأبي واثنين من الرجال، سقطنا جميعا أرضا، فوقفنا على الفور على أرجلنا، وإلا سوف تنقضّ بأنيابها على عُنُق أحدِنا فتُرديه قتيلا، واستقمتُ ثم جريت في الحال؛ فإذا بها تتبعني؛ إنها لم تنس أنني أنا من هاجمها الأول، لم أجد أمامي مَهربا، فهي سريعة وثقيلة، فإذا ما أمسكتني ستهجم علي، والأشجار تنتشر هنا وهناك فما الحل؟ لم أُنهِ تفكيري حتى وجدت نفسي أتسلق شجرة إلى الأعلى، فبِخوفي وردة فعلي تصرفت، ووجدت حلا للوضع قبل أن أفكر.

نجوت بأُعجوبة من هذه الأنثى الخشنة بعد أن تسلقت الشجرة، وتوقفت هي عن عدْوِها، فنزل

عليها الجميع برماحهم، فهوت إلى الأرض ميتة بلا حَرَاك، اكتشفنا أنها كانت مُخبّأة بين الأعشاب هي وأبناؤها الصغار، لهذا كان هُجومها أكثر فظاظة من المعتاد، عندما نظرتُ إلى صغارها استحضرت واقعة خالتي التي تركت وراءها ابنها الصغير وهو يبكي، حتى مات هو الآخر، فهذه هي حال هؤلاء الصغار الذين سيموتون جوعا أو يأتي حيوان مفترس فيأكلهم، وهذه هي الفرضية الأقوى، فأمهم التي كانت تحميهم قد اصطدناها، من المؤسف والمؤلم أن نرى هذا المشهد، لكننا مُجبرون على فعل ذلك وإلا سنموت نحن كذلك، هذه سُنّة حياتِنا.

ودّعت هؤلاء الخنانِيص[11] بعيني المتأسفتين لحالهم، والتقطت رمحي الذي سقط على الأرض، نظر إلي أبي وربَّت على رأسي وهو راض على رحلة صيدنا هاته؛ يبدو أنني أبليت بلاء حسنا رغم أنني لم أدرِك

[11] الخنانيص هم صغار الخنزيرة.

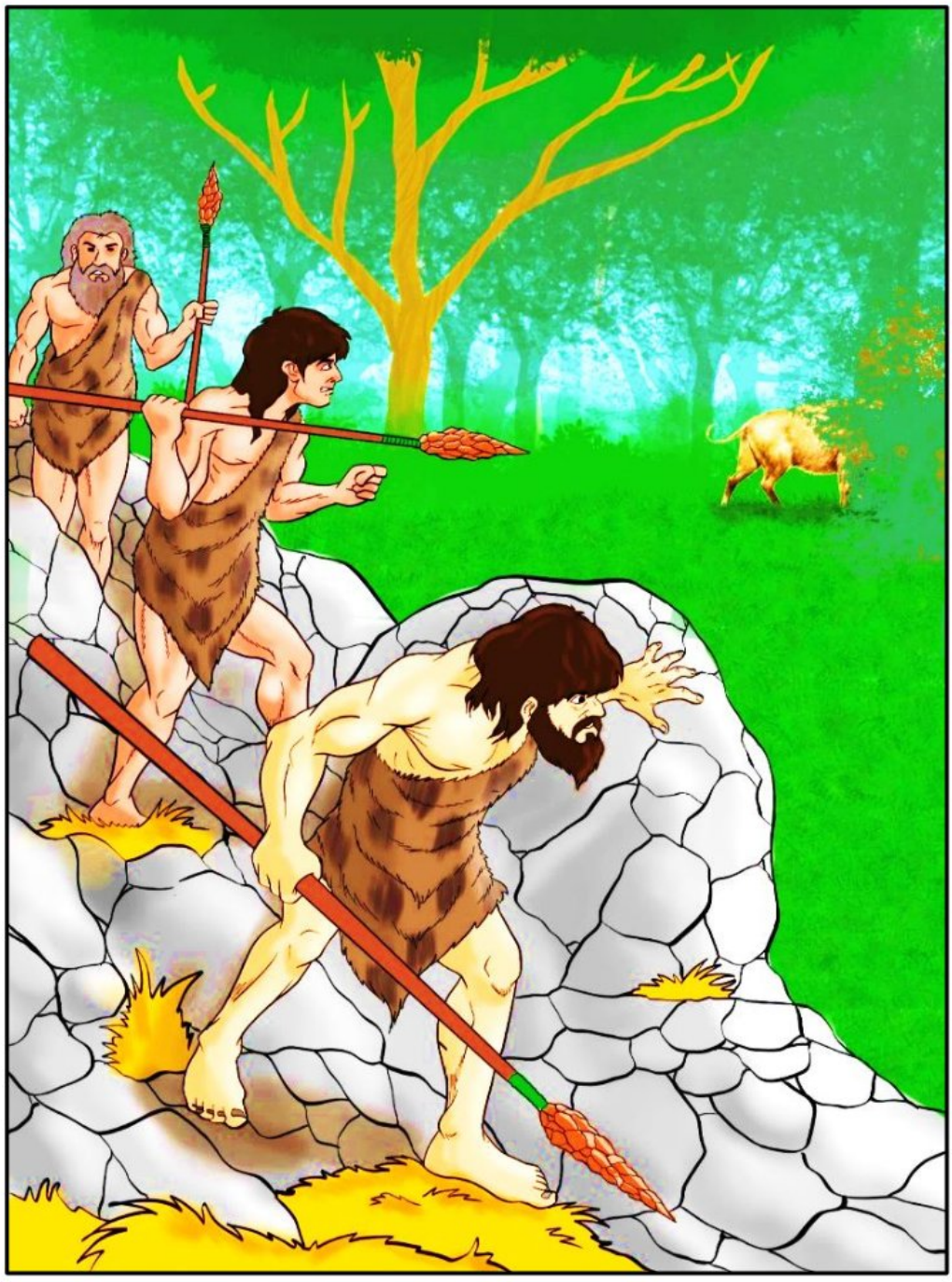

فجأة أرى عيون ذلك الحيوان قد لحظتني فإذا به ينهض بسرعة، ويتجه جريا صوبي...

الهدف، فالجميع يبتسم لي فرحا بطريدتنا اليوم. عُدنا حاملين أنثى الخنزير، كل واحد منا يُمسِكها من أحد أطرافها، أما أنا فإنني في الواجهة أمسك برجلها الأمامية اليسرى، اقتربنا من المغارة، فإذا بالصغار يجرون نحونا؛ يصرخون فرحين بصيد اليوم ويُهنّئونني بها، أحسست بأن نظراتهم إلي قد تغيرت، وكأنهم ينظرون إلى رجل كبير سيضمن لهم عيشهم ويحميهم من كل ضرر، كبُرتُ الآن وأصبحتْ على عاتقي حمايةُ جماعتي؛ إنها مسؤولية سأتحملها حتى مماتي.

وضعنا صيدنا داخل المغارة، خرجت أنا بعيدا ألتقط أنفاسي، فإذا بالأطفال يتحلَّقون حولي، وقد جاءوا من كلِّ حَدَب وصَوْب؛ يسألونني عن رحلة صيدي الأولى، فأطلقت العِنان لمُخيلتي أُجسّد وأحكي لهم عن مغامرتي مع الخنزيرة، وكيف أطلقت عليها الرمح بكل قوة وشجاعة، فهاجمتني لأهرب مُتسلقا الشجرة لينقض عليها الجميع، حكيت لهم

أنها خُطّتي الخاصة لم يسبق لأحد أن استعملها، رغم أن هذا ليس بالحقيقة، لكن المهم هي الأحداث، فلست أرضى بعد اليوم أن أكشف ضُعفي أو خوفي أمامهم، فأملُهم وهم صغار مرتبط بي.

عُدت إلى السكن الصخري، تاركا خلفي الأطفال يحْكُون ويتناقلون ما جرى لي اليوم، لقد سلَختْ أمي جلد الخنزيرة، وبدأت جماعتنا في توزيع اللحم بيننا بالتساوي، لكنه وباستثناء اليوم أنا من سيحصل على الجزء الأكبر؛ مكافأة لمجهودي لهذا اليوم.

أكل الجميع وانتفخت البطون، اِستلقى الكبار، أما الصغار فأراهم هناك قرب الشاطئ يلعبون وهم يُمثلون رحلة صيد، فيرمون على أحدهم بالأغصان وكأنه طريدة، هكذا كنت أنا أظن أن الأمر سهل، لكن المهمة أصعب مما فكرت فيه. تخِمت معدتي أنا الآخر لكني لم أقدر على النوم أو الاضْطِجاع، حملت جلد الخنزيرة وجلست تحت ظل أقرب شجرة من المغارة

وأنا أحمل مِكْشطي؛ أُزيل به تلك الدُّهون المتواجدة بالجلد، إنني أحضّره لكي أرتديه، ففصل الشتاء أوشك على القدوم، والبرد سيُجمِّد بدني إن لم أقه بغشاء الخنزيرة هذا. بعد أن انتهيت من تنظيفه من كل الشَّوائب؛ وضعته عاليا فوق أحد غصون الشجرة؛ كي يجف فألبسُه.

غربتِ الشَّمس، ولست قادرا على مقاومة النوم، ذهبت مباشرة بعد انتهاء عملي إلى مرقدي حيث أستلقي دائما؛ لأنعس في سُبات، فغداً يوم جديد لا ندري ما سينتظرنا فيه.

اِستيقظت صباحا مُنهكا، فعظامي مُتضرّرة من سقوط البارحة، حمل أبي آنية الطين الخاصة بنا، سنذهب لجلب الماء من الغابة. حملت رمحي الذي أصبح يُرافقني أينما ذهبت، ومشينا أنا وأبي نحو الغابة، سلكنا طريقا جديدا، وأبي يقطع النباتات بشفرات صَوانه الحادة كي نتمكن من العبور، قطعنا

مسافة طويلة، وفي كل لحظة أرى أعيُن كائناتٍ تُراقبنا هنا وهناك؛ من أرانب وثعالب وكلاب برية، ما زلنا نبحث عن صوت خرير المياه؛ إننا نسمعه بعيدا عنا، وها نحن نقترب منه قليلا قليلا وبكل حذر، ففي غالب الأحيان ما نجد حيوانات مفترسة كبيرة؛ هي الأخرى ترتوي لتُطفئ عطَشَها. يبدو أن المكان خال تماما؛ إنها عين جارية تنبثق من تحت الصخور؛ ماؤها صاف وعذب، اِنبطحنا على رُكُباتِنا أنا وأبي نشرب، حتى امتلأت بطوننا ماء، فغسلنا وجوهنا وأيدينا وأرجلنا لنتخلص من البقع المُتَّسخة، ومن رائحة اللحم النَّتنة، ثم بعد ذلك ملأنا آنيتنا ماءً حتى فاضت، سنعود أدراجنا من حيث جِئْنا؛ تاركين علامات في الأشجار بشفراتنا، لتَدلّنا على طريقنا إلى الماء مرة أخرى. عند رجوعِنا لاحظت وجودَ حُفر كثيرة قرب الأشجار، أرى بها عيونا تنظر إلينا خُلسة، سألت عنها أبي فقال بأنها جُحور لأرانب

برية. وقفنا قرب أحدها مختبئين وراء جُذوع الأشجار، ناولني أبي آنية الماء ونحن ننظر، لقد مر وقت طويل، فجأة ها هي واحدة منها قد خرجت من جُحرها، انقض عليها أبي ماسكا بها من أذنيها، إنها أرنب بني اللون ذو فِرَاء ناعم الملمس. وضعتُ الآنية التي بيدي في الأرض ليُناولني أبي هذا الأرنب لأحمله، رجعنا ثانية إلى المكان حيث اختبأنا في بادئ الأمر، اِنشغلتُ أنا بتمعن هذا المخلوق الجميل، أقرّب منه أُصبعي فيفتح فمه ليعُضّني، أفعل ذلك لأرى أسنانه البيضاء كالثلج والحادة، إنني أذكر في صغري أن أبي أحْضَر أرنبة صغيرة يحملها من أُذُنيها، فناداني لكي أراها، قرَّبت يدي الصغيرتان من فمها، فإذا بها تشُد على سَبّابتي الصغيرة بأسنانها التي -ومنذ ذلك اليوم- وأنا أخاف حدّتها. ما يزال أبي ينتظر مُترصّدا خروج أرنب ثان ليرتمي عليه.

عُدْنا أدراجنا وأبي يحمل أربعة أرانب، اثنان في كل يد، أما أنا فما زلت أحمل آنية الماء البارد. وصلنا إلى المغارة فناولت أمي الماء، أقبلت أختي الصغيرة مُسرعة من شدة عطشها؛ تعُبّ من الآنية كأن هذه فريسة، إذ لم تترك بها لأمي غير بعض القطرات. شوينا الأرانب والكل فرِح بأكلها، فلحمها لذيذ؛ لم يتبق منها غير عظامها الصغيرة.

اِستلقيت في مكاني أنظر إلى رأس الرُّمح؛ وأتحقق من حِدّته، فلاحظت من بعيد أن أمي تتحدث إلى أبي في أمر ما يخصّني، أتمنّى ألا يكون ذاك الشيء الذي أخاف منه، إن أبي يُومِئ لها برأسها موافقا إياها، يا إلهي من المؤكد أنهم يتحدثون عن ذاك الشيء الذي أخشاه.

تقوم جماعاتُنا هذه بطقوس غاية في الغرابة، فعندما يكبُر الطفل ويُصبح رجلا صائدا، تُنزع له أسنانه الأربعة الأمامية، اثنان من الأعلى واثنان من

الأسفل. فجميع الرجال لا يملكون هاته الأسنان، فعندما كنت صغيرا، وفي كل مرة يجرى فيها هذا الطقس لشخص ما؛ أختفي عن الأنظار بعيدا، ورغم ذلك أسمع بكاءه وتألُّمَه. لم أستطع فَهْم الغاية من فعل ذلك، لكنني ما أعلمه هو أنني أفزع منه ولن أسمح بفعل ذلك بي.

لم أتمكن من النعاس، فمخاوفي تُطاردني في كل وقت، ذهبت إلى رأس ذلك الخنزير الذي أمسكنا به البارحة، اِقتلعتُ نابَه الأيمن الكبير لأصنع منه قِلادة، فذهبت إلى الشجرة لأعمل على إحداث ثَقب داخل هذا السنّ. لم أتمكن من فعل شيء، فتفكيري كله فيما قد يحدث غدا، ماذا سأفعل إذا ما اقتلعوا أسناني الأمامية، لن أتحمل ألم اللحظة، أو حتى ألم ما بعد العملية.

اِستيقظت صباحا بعد ليلة مليئة بالكوابيس، وحلمت بحيوانات تفترسني، وبأخرى تَنتزِع أسنانا من

فمي والدم يملأ الأرجاء. سمعت صوت أبي يأتي من الخارج؛ إنه يناديني، تسلحت برمحي والتحقت به؛ ظننت أننا سنخرج في رحلة للصيد؛ لكن الواقع كان شيئا آخر، إنه يقف هناك وجميع الرجال مُتحلِّقون حوله، والأطفال يرقصون حولهم، حتى الشيخ الأكبر سنا منهم جميعا؛ جالس هناك فوق الصخرة ينظر هو أيضا إلي، جميع أفراد جماعتنا ينتظرونني؛ ماعدا أختي الصغيرة فلا أثر لها، لقد عَلِمتْ بما سيقع اليوم فاختَفَتْ عن الأنظار؛ إنها لا تحب أن تراني أتألم، أما الأطفال الآخرون فإنهم ينتظرون بشوق ما سيفعلون بي. لقد وُجِدْتُ في موقف لا يُحسد عليه، ولا مفرّ لي الآن وأنا أمام هذا الحشد، فإذا ما هربت سيظُنُّونني خائفا، وجبانا لايُعوّل عليّ، وستَنْفِيني قبيلتي وتستنكرني؛ لذا سأقاوم الخوف كما قاومته في أول يوم صيد لي، وأُبدي شجاعتي أمام الجميع. تقدمت بخطوات إلى الأمام مُحاوِلا إخفاء الفزع من

ملامح وجهي، اِبتعد الجميع عن مكان الصّخرة حيث سأجلس فاسحين لي الطريق، إنها اللحظة التي لم أكن أتمنى يوما أن أوجد فيها، تمنّيت لو قتلتني الخنزيرة أو نهشني ضبع على أن لا تُقتلع أسناني.

أُنتزِعت أسناني من جُذورها، صراخ وآهات وألم مميت لا يُحتمل، شعرت بالدُّوَار والغثيان، الجميع يطوف حولي كبار وصغار؛ يرقصون ويُغنّون فرحين بانضمامي إلى صيادي القبيلة. أما أنا فما زلت أعاني من الألم، وأنا أحمل بين يدي أسناني الأربعة.

كانت أسوء تجربة أخوضها؛ أمضيت سبعة من شروق الشمس[12] وأنا أتوجع؛ لم أتمكن من النهوض ومن الخروج، أو حتى القيام من مكاني، فأمي تُحضِر لي كلّ ما أحتاجه لآكل؛ لكنني أرفض كل ما طاب ولذ من طعام، ففكاي لا يتحملان أي شيء صلْب. أمضيت هذه الأيام في شرب الماء وأكل

[12] هذا عدٌّ بعدد شُروق الشّمس.

فواكه الغابة، وبعض من فواكه البحر التي تأتي بها إلي أختي الصغيرة، إنني أحس بأنها الشخص الوحيد الذي يشعر بعنائي، وينتظر بشوق شفائي.

تماثلت للشِّفاء بعد مدة طويلة من المعاناة، اِستيقظت في صباح أحد الأيام وأنا أحس أن قواي ضعُفت، لن أتمكن من الخروج إلى الغابة أو حتى القيام بعمل ما، فإن جسمي قد فقد الكثير من الدماء، ولم أُعوِّضه بأكل اللحم، لذا فقد قررت أن أجلس على صخور البحر، لأصنع لأختي عِقدا من ناب خنزير كنت أحتفظ به منذ وقت طويل، حيث إنها كانت في كل مرة تطلب مِنِّي أن أصنعه لها كي تضعه حول عُنُقها، كمكافأة لحنانها، ولِما فعلته تُجاهي طيلة هذه الأيام، سأصنع لها العقد بيدي، وسأُعطيه إياها.

أخرجت ما معي من ألياف أشجار يابسة، وناب الخنزيرة، ثم اخترت من بين الصَّوانات الخاصة بي

واحدة ذات رأس طويل وحاد، وذهبت بعيدا إلى حيث لا يراني أحد، وجلست على إحدى الصخور؛ أمام شاطئ البحر، وعقاربُ تلك الأرض تحوم حولي، وتحاول في كل مرة الانقضاض على أصابعي. أخذت ألياف الشجر اليابسة وبدأت في فتلها واحدة بعد الأخرى، ثم في مجموعة؛ إلى أن حصلت على خيط غليظ وطويل، وضعته جانبا، فأخرجت ناب الخنزير وحجر الصَّوان، وأخذت بإحداث ثقب على طرف الناب العلوي المقتلع من الفك. وأنا ماسك حجر الصوان بيدي اليمنى، وبحركات نصف دائرية، وفي وقت ليس بالقليل، حصلت على الثَّقب، ثم أدرت النّاب لأقوم بنفس الشيء من الجهة الأخرى. حصلت بعد عملي هذا على ناب بثَقب كبير القُطر، مَرَّرْت من خلاله خيطَ الألياف الذي حضّرته، ثم عقدت أطرافه واحدا بالآخر، جربت وضعه في عُنقي، وأظن أنه سيُناسب أختي أكثر مِنّي،

وسَتسْعد بذاك النّاب الحادّ من طرفه السُّفلي، والذي يلمع كلما تحرك.

حملت حجر صواني وأنا ممسك بالعِقد وقصدت إلى الكهف، عند وصولي إليه لم أجد أختي، يبدو أنها تائهة في مكان ما مع أبناء قبيلتنا، جلست في مكاني داخل الكهف مُنتظِرا عودتها، يبدو أن المكان خال، فالجميع قد خرجوا هذا اليوم، ولم يعودوا بعد من رَحَلات الصّيد، والتقاط ما يُذهب الجوع.

بعد وقت ليس بطويل سمعت خُطىً وضحكاتِ الصِّغار وهم يقتربون من المغارة، الكل يهتف بأصوات مرتفعة؛ أسرعت إلى الخارج لمعرفة ما يدعوهم إلى الفرح، إنهم رجال القبيلة يحملون ذكر غزال كبير قد اقتنصوه، والنساء بجانبهم يحملن أطنانا من الأغصان اليابسة، أما الأطفال فهم يجرون وراءهم وأعينهم تلمع لرؤية الطريدة.

كنت أنظر ولأول مرة إلى غزال بحجم كبير؛ وهم يدنون به ببطء؛ يبدو أنهم انقضوا على زعيم قطيع الغزلان، فجأة انهمك الجميع في العمل، فكل مجموعة اهتمت بالقيام بما هي مسؤولة عنه، فهناك من جدّ في سلخ الغزال، وهناك من يُشعل النار داخل المغارة، أما الأطفال فهم مُتحلّقون حول الرجال الذين يعملون على نزع الجلد عن اللحم، وكذا تقطيعه، وأختي من بين المتفرجين؛ حتى أنها لم تكترِث لوجودي وراءها، فهي مُنشغلة عني كبقية الأطفال من عُمُرِها.

عُدت إلى موضع جُلوسي، فخبّأت العقد إلى أن تنتهي وليمة الأكل ويحلّ الظلام، ثم أُعطيه إياها، اِستلقيت وأنا أنظر إليهم يعملون بلا كلل أو ملل، والابتسامات تملأ الوجوه. يبدو أنني غفوت لبعض الوقت، لأنني اِستيقظت فجأة على رائحة الشّواء،

وعلى صوت شَيِّ اللحم، واحتراق الأغصان بالنار المستعِرة.

اِمتلأ المكان بالدخان، فارتفعت درجة حرارة الكهف، فقلت: «لِأرْجع إلى نومي إلى حين انتهاء الشّواء»، بعد لحظات أيقظتني يد صغيرة وهي تحاول أن تحرّكُني لأنهض، إنها أختي ووراءها أمي التي تحمل بيديها قطعة لحم مشوية، أعطتها إيّاي بعد أن نهضتُ من استلقائي؛ اِتكأت على الجدار الذي يوجد ورائي، بدأت آكل بشراهة؛ قضمة بعد الأخرى، فأنهيتها في زمن قصير، ثم اتجهت إليهما أطالب بالمزيد؛ بما أنني لم أشاركهما الأكل مدة أسبوع كامل. اِمتلأ بطني إلى آخره، فلم أعد قادرا على النهوض، أما موضوع العِقد فقد أنساني عنه جوعي ونومي، لكنني أعِد نفسي بأن أول شيء سأقوم به غدا صباحا هو إهداء العقد لأختي، وبهذا أكون قد تخلصت منه.

طَلَعت شمس يوم بارد، اِستيقظت باحثا عن أختي في الكهف؛ لكنها غير موجودة كعادتها، فهي أول المستيقظين صباحا للّعب في الخارج، إنها هناك تلعب فوق رمال البحر الباردة، ناديتها بصوت عال؛ اِلتفت إليها الجميع من حولي، فَنَظرت إليّ، فأشرت لها بالمجيء، فقَدِمت بخُطى سريعة ومنفلتة هنا وهناك؛ تتبعني إلى المغارة، وإلى حيث أنام، وهي تنتظر ما أريده منها؛ أخرجت العِقد وأعطيته إيّاها.

فإذا بها ترتمي عَليّ فرحا بعينين تلمعان، وضحكاتُها تغمر الأجواء، وَضَعَتْه في عُنقِها، وانصرفت تجري من حيث أتت؛ نحو أطفال جماعتنا؛ تُريهم عِقدها الجديد بكل فخر واعتزاز وفرح. أما أنا فقد حملت رُمحي لأبحث في داخل الغابة عن ماء عذب أرتوي منه.

في طريقي إلى منبع الماء لم أصادف أيّ مَخلوق، ولم أسمع أي صوت، وكأن سكان هذه الغابة قد

هاجروا، لكنني شاهدت أسرابا وأسرابا من الطيور مُتّجهة نحو الجنوب؛ إنها علامة على حلول طقس جديد، فقد أحسست في هذه الأيام بأن الجو يبرد شيئا فشيئا، عُدت أدراجي بعد أن ارتويت من الماء العذب، وعند وصولي وجدت ضوضاء تعم المكان، والكل يجري هنا وهناك؛ يبدو أننا سنحمل أمتعتَنا نحن أيضا ونتّجه نحو الجنوب، فحيث ما ارتحلت الحيوانات نرتحل نحن معها، وحيث ما حلت بمكان نحل معها به، حيث الماء السائغ والطقس المعتدل.

حمل الجميع مستلزماتِه الشخصية، أما أنا فلم أحمل معي سوى رُمحي وبعضًا من رؤوسِه الحادة، باشرنا المشي مرة أخرى إلى وِجْهتِنا الجديدة، التي لا نعلم عنها شيئا، فحدسنا بالطبيعة، وعلاماتُ الحيوانات والطيور دليلُنا إلى المكان المناسب.

مرت ساعات وساعات ونحن نسير في خَطْوات مُستمرة، والغيومُ تجري وراءنا مُحمّلة بالأمطار الغزيرة،

ونحن نسرع للإفلات منها، أصاب البعض منا إعياء خاصة الصغار، فجلسنا على سطح إحدى الصخور الكبيرة لوقت وجيز؛ نلتقط أنفاسنا حتى نُكمِل الرحلة؛ قبل أن يحل علينا الظلام بمكان غير آمن.

نجونا من مطر ذلك اليوم؛ إذ داهمنا الظلام ونحن تحت شجرة كبيرة انتقلنا إليها، فأشعلنا النار لنقاوم برودة الليل، أما بطوننا فستنام خاوية مُنتظرة قدوم الصباح. اِستيقظنا على شروق الشمس لنستمر في السير في جو أول النهار الرطب، فأشعة شمس هذا اليوم تدل على أنه سيكون شديد السخونة.

اِشتدت أشعة الشمس وانهارت قُوى العديد منا، لكننا مازلنا نقاوم إلى أن نجد ظلا نذهب إليه، اِلْتَفتُّ لأنظر إلى أختي، فإذا بي أراها تسقط على الأرض من فرط التعب؛ لم تعد تَقْوى على تحمّل المشي تحت أشعة الشمس الحارقة. حملتُها فوق كتفي، لكنني أحسست بثقلها الكامل علي، يبدو أنها لم تعد قادرة

حتى على رفع رأسها، بعد مرور ساعات طلبتُ من أبي أن يحملها عنّي.

بعد مرور يوم كامل وجدنا أنفسنا أمام مغارة جديدة صغيرة الحجم؛ في جُرف من الصخور، جلس الجميع في ظِلِّها يستأنس ببرودة المكان، إلا أختي المسكينة التي استلقت على الأرض نائمة دون حركة، بعد هذه الاستراحة خرج العديد منا للبحث عن شيء للأكل؛ منهم أمي وأبي، أما أنا فجلست قُرب أختي أنظر إليها وهي مُنهكة القوة، ووجنتيها محمرّتان كلون الدم، أما جسدها فهو ساخن حارق؛ لم تنخفض درجة حرارتها منذ أن وصلنا.

حلّ الليل وأختي على حالتها لا تُحرِّك ساكنا، أعطتها أمي ما تأكله؛ لكنها ترفض في كل مرة. لم أتمكن من النوم هذه الليلة فأنين وهُتر أختي ملآ أُذُني، لم تتمكن المسكينة من النعاس، حملتها أمي في

الصباح، وذهبت بها إلى أحد الينابيع الباردة لتستحم؛ لكي تزول عنها الحمى.

في صباح الغد، وعندما سطعت أشعة الشمس، تابعنا رحلة السير للبحث عن جهة أخرى من الأرض، عن مكان آخر آمن؛ عن بلاد ثَرّة[13]؛ نجد فيها ما نأكله، ونشرب ماء يَنابيعها، ونبحث في أرجائها عن أشياء جميلة الأشكال والألوان نتجمّل بها؛ كالأصداف والقواقع، وحصى الصخور المختلفة أشكاله؛ وهكذا ليستمر وجودُنا على سطح الأرض؛ مُستدفئين بأشعة الشمس، ومُتطلعين إلى القمر؛ مُستنِيرين في الليل بضوئه.

تمت؛

في صيف **1445** هـ؛ الموافق **2023** م.

[13] بلاد ثَرّة؛ بمعنى بلاد كثُرت مواردُها الطبيعية النّافعة للإنسان ومُلبّية لحاجاتِه اليومية.

الفهرس

تقديم 5
ارتحال الإنسان القديم 11